تكوين الدولة والهوية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا

State Formation and Identity in the Middle East and North Africa

كينيث كريستي، محمد مسعد
Kenneth Christie and Mohammad Masad

مراجعة: هلال بارين-Reviewed by Hilal Barın

يحلّل كريستي ومسعد دور تكوين الدولة والهوية في منطقة الشرق الأوسط ومنطقة شمال إفريقيا عن طريق تجميع كمّ معتبر من البحوث التي قدمت في المؤتمر الثالث عشر لبحوث البحر الأبيض المتوسط.

يركز هذا البحث على فترة ما بعد الربيع العربي الذي وجه الأنظار إلى العناصر الحاسمة في تقييم كيفية تشكّل الدول، وبقائها معًا، واستجابتها لقوى العولمة، ويركز أيضًا على السياقات المحددة لما يحدث في الأردن، والمملكة العربية السعودية، ومصر، والجزائر، ولبنان، والبحرين، ويرى المؤلفان أن الدول في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا شهدت آثارًا وعواقب مختلفة تنبع من سياسات الهوية والعمليات التاريخية والسياسية التي واجهتها كل منها في تطورها.

يسلط كريستي ومسعد الضوء على أن البحث لا يزال في مراحله الأولى، وأنّ هناك حاجة إلى إطار نظري متماسك لتحليل دور الهويات الدينية والعرقية في تشكيل الدول في المنطقة، وقد حدّدا ثلاثة اتجاهات مختلفة يحتمل أن تؤدي إلى فهم أشمل: أولاً، وضع نظرية تتناول الطرق المختلفة لتفاعل وتنافس الدين والعرق وإكمالهما عمليات تشكيل الدولة من منظور تاريخي وسياسي. ثانيًا، وضع نظرية عن "الدولة بوصفها كيانًا، مع التركيز على المضمون والتحيزات الأيديولوجية" من أجل استكشاف المناهج المختلفة التي تتعامل بها الدول مع مسائل الدين والعرق والهويات المرتبطة بها. ثالثًا، وضع نظرية تتناول "العلاقة المعقدة بين العولمة والدول في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وتدرس على سبيل المثال، كون العولمة تُعزّز الديمقراطية أو أنّها تسبب مزيدًا من التشرذم.

واعتمادًا على نظرية التبعية، يقدم ماريون بولبي في الفصل الثاني وجهة نظر مختلفة عن تعقيدات الهوية وتكوين الدولة فيما يتعلق بتطوير السوق العالمية، و"صعود النخب التي تدين بالولاء لقوى من خارج المنطقة"، ويقدم بولبي سردًا لتطور الدول في العالم العربي، ويتتبع كيف تشكلت -على المستوى العام -المسارات التاريخية العربية من خلال عوامل، مثل الاستعمار والرأسمالية الغربية الأوربية، والحربين العالميتين، والربيع العربي في الوقت الحاضر الذي حاول أن يفرض الهويات المذكورة أعلاه.

وفي الفصل الثالث، تطرح نور كوبرولو مشكلة بناء الدولة الأردنية من خلال شرح كيفية تحول خطاب بناء الأمة الأردنية ليصير قائمًا على فكرة أن الفلسطينيين والأردنيين يشكلون أمة واحدة، وأدت هذه البنية إلى تصاعد معضلة التفضيلات المتعارضة للأردنيين والأردنيين الفلسطينيين فيما يتعلق بمعاهدة السلام التي عقدت بين المملكة الأردنية وإسرائيل في عام 1994، وتشير الكاتبة من ناحية إلى أن الهوية الوطنية الفلسطينية قد تأصلت في الصراع مع إسرائيل؛ ومن الناحية الأخرى فإن العنصر الأساسي في بنية

الهوية الوطنية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتشكيل الدولة (أي المملكة الأردنية الهاشمية) بالنسبة للأردنيين"، ومع صعود الربيع العربي، تصاعدت المسألة المتأصلة المتمثلة في الهوية المزدوجة للأردن، وقد تجلت الأسئلة التي تتعلق بشرعية النظام الملكي، وسخط الفلسطينيين من تطبيع المملكة علاقاتها مع إسرائيل، ومعارضة جماعة الإخوان المسلمين وجبهة العمل الإسلامي (IAF)- في الاضطرابات الاجتماعية والسياسية المتزايدة، وتبرز الحالة الأردنية من بين حالات مماثلة في المنطقة لكن مع مطالبة المظاهرات العامة بمزيد من الإصلاح السياسي، لا بسقوط النظام الملكي».

وفي الفصل الرابع يدرس سيباستيانو أندريوتي تشكيل دولة "الإخوان" في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر تاريخية ومعاصرة، طارحًا تساؤلات حول عدم تأثير الربيع العربي في بعض الأنظمة الملكية التقليدية، ويشير إلى قدرة الملك عبد العزيز آل سعود على وأد الطبيعة القبلية للحركات السياسية والعسكرية، واستخدامه تفسيرات الدين لضمان التلاحم... وتأتي أهمية هذه القضية اليوم بجلاء عندما نضع في الاعتبار العملية الجارية "لإعادة أسلمة الشرق الأوسط بأكمله، ودور الحركات والاحزاب الإسلامية في إعادة تشكيل الإطار السياسي لهذه الدول"، ويخلص إلى أنه "إذا كانت تهدئة النزعات القبلية هي عنصر الفوز بالنسبة للأنظمة الملكية الحاكمة في الشرق الأوسط"، فلابد أن المملكة العربية السعودية تمثل بالتأكيد قصة نجاح يبدو أن "فعاليتها سوف تستمر حتى في مواجهة الضغوط الأخيرة التي تطرحها أحداث الربيع العربي".

ويركز الفصل الخامس على إصلاح التحرر السياسي في البحرين، ويبين سبب عدم نجاحه في تهدئة السخط في أوساط الغالبية الشيعية من السكان، وتسلّط ماجدالينا كارولاك الضوء -فيما يتعلق بمظاهرات فبراير -2011 على الانقسامات بين النخبة السنية الحاكمة والغالبية الشيعية المعارضة، وتستعرض الكاتبة التفاعل بين الهوية والشرعية في البحرين منذ نشأتها وحتى الوقت الحاضر، وتشكك في نجاحها، وتقول إن "محاولة المملكة التحرك نحو التحول إلى دولة حديثة تضررت بسبب الربيع العربي والانقسام الطائفي الذي حدث مؤخرًا"، وتمثل البحرين واحدة من القضايا الأكثر إثارة للاهتمام والفريدة في الربيع العربي، ويرجع هذا أساسًا إلى أنها "واحدة من دول الخليج القليلة التي بدا فيها التغيير السياسي والاجتماعي وشيكًا"، وحيث إن مفهوم الهوية في حد ذاته يؤدي إلى تعقيد النظام السياسي.

وفي الفصل السادس يستعرض سيباستيان إلساسر العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في مصر وتأثيرها في تكوين الدولة، ويركز المؤلف على محاولات مصر منذ قرن من الزمان بناء دولة قومية حديثة، وتحليل النزعات الإحيائية الإسلامية والقبطية التي أدت إلى نتائج مختلفة اليوم، ويضع إلساسر في اعتباره تحديات وآفاق ظهور دولة أكثر شمولية تتميز بالانقسامات والتعصب وعدم الثقة، ويستكشف المؤلف الموضع الأكثر إثارة للجدل فيما يتعلق بالهوية الوطنية المصرية، من خلال التركيز على الكيفية التي يُصوَّر بها الأقباط في خطابات الوطنية والقومية، والمواطنة، ولاسيما في عهد مبارك، ويهتم الكاتب اهتمامًا خاصًّا بتنوع الأصوات الذي يتم تجاهله في المجتمع القبطي، ويقول إن الثورة أتاحت للأقباط فرصة "للتعبير عن مخاوفهم (بمزيد) من العلنية، كما أتاحت الفرصة لجميع المصريين للانخراط في مناقشات جادة حول مستقبل الوحدة الوطنية والبحث عن حلول سياسية».

وفي الفصل السابع تحلل ليزا واتانابي "المسألة الأمازيغية" في ضوء الخلفية التاريخية للاستعمار الفرنسي، والحركة الوطنية الجزائرية، وصعود الدولة القومية... وعلى الرغم من الفرص التي يطرحها الربيع العربي، لماذا أخفقت جماعة الأمازيغ في الجزائر في تعزيز مكانتها وهويتها داخل البلاد؟ يكمن التحدي بالنسبة لمجتمع به روابط عابرة للحدود الوطنية مثل الأمازيغ- في التأثير في الإصلاحات داخل "سياقات محددة خاصة بالبلد" تستوعب حقوقهم ومطالبهم "الثقافية والسياسية"، ووفقًا لواتانابي، فإن رفض

المجتمع الأمازيغي المتواصل للرؤية العربية الإسلامية التي حددت معالم الدولة الجزائرية في ما بعد الاستعمار قد يساعد في تفسير الاستثناء الجزائري الواضح من الربيع العربي.

وفي الفصول الأخيرة، يستعرض بشارة بو أيوب الوفاق السياسي المتناقض بين حزب الله والتيار الوطني الحر في لبنان، ومن خلال تسليط الضوء على تعقيدات الوضع السياسي في لبنان، يَعُدّ الكاتب بإسهاب مذكرة تفاهم بين الطرفين، ويسلط الضوء على "الفروق الدقيقة والصعوبات في التصنيف المتنازع عليه للدين والعرق وتشكيل الدولة».

ومن الجدير بالذكر أن الربيع العربي قد هزّ "بعض القوى التأسيسية للتمرد الديمقراطي في المنطقة» ودفع بمسائل الدين والعرق والهوية إلى موقع الصدارة...

يقدم هذا الكتاب مجموعة من التحليلات والاستكشافات الوافرة والمتعمقة لمنطقة معروفة، ولكنها لا تزال تستعصي على فهم الكثيرين، ويهدف إلى وضع الدولة في محور النقاش، من أجل "إزالة الغموض" حول دورها، وطرح أسئلة في ما يتعلق بالهويات الدينية والعرقية.